المحاضرة الثالثة

الفرق الإسلامية (2)

المعتزلة:

تعتبر المعتزلة إحدى الفرق التي أفرزها الصراع العقائدي المُتَجذّر منذ المائة الهجرية الأولى، إضافة إلى الخلافات مع الملل والنحل؛ والمعتزلة كوكبة من أهل الفكر والنظر، اتّخذوا من الفلسفة والفكر والرقي في المعرفة بديلا عن الأحساب والأنساب، فتحقق في فرقتهم تعايش العرب والموالي دون تفاخر أو تنافر أو عصبية، وكان الفكر العقلاني هو السُلّم الذي ارتقوا عليه.

المعتزلة هم أرباب الكلام وأصحاب الجدل، والتّمييز والنّظر والاستنباط، والحجج على من خالفهم وأنواع الكلام "والمفرقون بين علم السمع وعلم العقل، والمنصفون في مناظرة الخصوم، وهم عشرون فرقة يجتمعون على أصل واحد لا يفارقونه، وعليه يَتَولّون وبه يتعادون وإنما اختلفوا في الفروع، موضوع علم الفقه من الفروع وهذا لأنّ منهم الحنابلة والشّافعية، أمّا الأصول التي هي موضوع علم الكلام الذي لا جدال فيه بينهم هو المنزلة بين المنزلتين، ومرتكب الكبيرة، فمن رحمها انبثقت روح الاعتزال وتطورت مع مرور الزمن.

الاختلاف حول التسمية:

أولا: الرأي الذي يربط بين نشأة المعتزلة والأحداث السياسية التي وقعت في صدر الإسلام، حيث يرى الملطي أنهم "سمّوا أنفسهم معتزلة وذلك عندما بايع الحسن بن علي معاوية (40هـ)، وسلّم إليه الأمر اعتزلوا الحسن ومعاوية وجميع الناس، وذلك أنهم كانوا من أصحاب علي، ولزموا منازلهم ومساجدهم وقالوا: نشتغل بالعلم والعبادة فسموا بذلك معتزلة.

ثانيا: خلاف واصل بن عطاء مع الحسن البصري حول مسألة مرتكب الكبيرة.

يجمع المؤرخون على أن رأس المعتزلة هو واصل بن عطاء، وقد كان ممن يحضر مجلس الحسن البصري العلمي، فثارت تلك المسألة التي شغلت الأذهان في ذلك العصر، وهي مسألة مرتكب الكبيرة، وذلك حين خرج واصل بن عطاء "وزعم أن الفاسق من هذه الأمة لا مؤمن ولا كافر، وجعل الفسق منزلة بين منزلتي الكفر والإيمان، فلما سمع الحسن البصري من واصل

بدعته هذه التي خالف بها أقوال الفرق قبله طرده عن مجلسه، فاعتزل عند سارية من سواري المسجد البصرة، فقال الناس يومئذ: إنّهما قد اعتزلا قول الأمة، وسمي أتباعهما من يومئذ معتزلة.

وضعت المعتزلة منهجا للتعامل مع العقيدة ركّزت في النّهاية على أصول خمسة أوضحت من خلالها فهمها المتميز لأصول الدين، ولعل لتحديد العدد بالخمسة حكمة وتأصيل ذكرها القاضي عبد الجبار في جوابه لمن سأله: "ولم اقتصرتم على هذه الأصول الخمسة؟ فيقول: إنّه لا خلاف أن المخالف لنا لا يعدو أحد هذه الأصول، ألا ترى أنّ خلاف الملحدة، والمعطلة، والدَّهرية، والمشبهة قد دخل في التوحيد؟ وخلاف المجبّرة بأسرهم دخل في باب العدل؟ وخلاف المرجئة دخل في باب الوعد والوعيد؟ وخلاف الخوارج دخل تحت المنزلة بين المنزلتين؟ وخلاف الإمامية دخل في باب الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، وفيما يلي نذكرها بالتفصيل.

1/ التّوحيد:

التّعريف اللغوي التّوحيد من "وَحَّدَ: الواو والحاء والدال أصل واحد يدل على الانفراد، ومن ذلك الوَحْدَةُ، والواحد: المنفرد" في ملكه وذاته، أمّا في اصطلاح المتكلمين "فهو العلم بأنّ الله تعالى واحد لا يشاركه غيره فيما يستحقّ من الصّفات: نفيًا وإثباتًا على الحدّ الذي يستحقّه والإقرار به، ولابدّ من اعتبار هذين الشّرطين: العلم والإقرار جميعا، لأنه لو علم ولم يقرّ، أو أقرّ ولم يعلم لم يكن موحدا"

2/ العدل:

التّوحيد والعدل عند المعتزلة متعلّق بتنزيه الذات الإلهية، فلغة: "العين والدال واللام أصلان صحيحان...والعدل نقيض الجَوْر، تقول: عَدَلَ في رعيته"؛ وهو عند ابن منظور: "لمصدر عدل يعدل عدلا وهو ما قام في النفوس أنه مستقيم وهو من أسماء الله العدل، لأنّه لا يميل به الهوى فيجور في الحكم" .

هناك صلة وثيقة بين التّوحيد والعدل عند المعتزلة إذ نزهوا الذات الإلهية "في أصل التّوحيد عن صفات المخلوقين، كذلك نزّهوه في أصل العدل عن الظلم، فالله في أصل التّوحيد منفرد بذاتيته التي لا يشبهها أحد، وهو في أصل العدل منفرد بخيريته فلا يصدر عنه

الشر؛ فالتّوحيد إفراده بالوجود، والعدل تنزيه عن الظّلم، فالظّلم ليس من متعلّقات الذات الإلهية، وإنّما هو من صفات المخلوق الذي يعتريه النّقص.

تفرعت عن مشكلة العدل الإلهي مشكلة أخرى تتعلّق بخلق الأفعال أو ما سّميناه سابقا مشكلة الجبر والاختيار "فالإنسان في نظر المعتزلة فاعل مختار حرّ الإرادة، يتصرّف بهذه القدرة التي منحته إياها العناية الإلهية كما يشاء ويوجّهها بحسب ما يريد، ويستغلها في خلق أفعاله"، يفعل ما يشاء ولا دخل للإرادة الإلهية، وفي هذا التمسّك من قبلهم له ما يبرره وهو أن "لا ينسب الشرّ الخلقي النّاتج عن علاقة الإنسان كالظّلم إلى الله، واتّفقوا على أن العبد خالق لأفعاله خيرها وشرّها، مستحقّ على ما يفعله ثوابا وعقابا في الدار الآخرة، وهي ما عُرفت بنظرية الحرّية في التّراث العربي الفكري العقائدي.

3/ الوعد والوعيد:

إذا نظرنا إلى هذا الأصل عند المعتزلة نجدهم قالوا فيه إنّ الله تعالى صادق في وعده ووعيده يوم القيامة لا مبدّل لكلماته فلا يغفر الكبائر إلا بعد التوبة، فإذا خرج المؤمن من الدنيا على طاعة وتوبة استحقّ الثّواب، وإذا خرج من غير توبة عن كبيرة ارتكبها خلّد في النار وكان عذابه فيها أخفّ من عذاب الكفار.

يرى القاضي عبد الجبار في الوعد والوعيد أنه "كلّ خبر يتضمّن إيصال نفع إلى الغير أو دفع ضرر عنه في المستقبل، ولا فرق بين أن يكون حسنًا مستحقًّا...ألا ترى أنّه كما يقال إنه تعالى وعد المطيعين بالثّواب، فقد يقال وعدهم بالتفضل مع أنه غير مستحق، وأمّا الوعيد فهو كل خبر يتضمّن إيصال ضرر إلى الغير أو تفويت نفع عنه في المستقبل، ولا فرق بين أن يكون حسنًا مستحقا، وبين أن لا يكون كذلك.

4/ المنزلة بين المنزلتين:

يعتبر هذا الأصل نقطة انطلاق الفكر الاعتزالي، حيث يعتبره غالبية المؤرّخين "نقطة البدء في تكوين المعتزلة، وقد سمي المعتزلة بالمنازلية: أصحاب المنزلة بين المنزلتين؛ مرتكب الكبيرة جعلته المعتزلة إن صحّ التمثيل كأصحاب الأعراف لا إلى الجنة هم سائرون ولا إلى النار، فكذلك قاست المعتزلة الأمر، إذ جعلته بين الفسق والكفر لا إلى هذا ولا إلى ذاك وإنما هو في الوسط.

5/ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر أصل تشترك فيه الملّة بما فيها من فرق، لكن آلية تنفيذه هي المُختَلَف فيها، حيث ترى الخوارج باليد واللسان يرى غيرها بأضعف الإيمان. ويبدو أن هذا الأصل كان له ميزة خاصة عندهم،إذ "جعلوه أصلا عظيما من أصول الدّين، وقالوا عنه إنه أصل شريف وعَدُّوه أشرف من جميع أبواب البر والعبادة؛ الأمة المحمّدية خير الأمم التي أُخرِجت للناس إذ من أخصّ خصائصها الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر.

تلك هي الأصول الخمسة للمعتزلة تكون مذهبا متناسقا مترابطا يتّصل كل واحد منها بالأخرى: التوحيد كان أساسها، وأقيم العدل على التّوحيد، ومن العدل انبثق أصل الوعد والوعيد، ليأتي الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، وتفرّعت من تلك الأصول مسائل وجزئيات .

مكتبة المحاضرة:

سهيل قاشا، المعتزلة ثورة الفكر الإسلامي الحر.

محمد صالح محمد السيد، مدخل إلى علم الكلام.

الملطي، التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع.

أحمد محمود صبحي، في علم الكلام دراسة فلسفية لآراء الفرق الإسلامية في أصول الدين المعتزلة، ج1، دار النهضة العربية، بيروت، ط5، 1985.

القاضي عبد الجبار الهمذاني، الأصول الخمسة، تح فيصل بدير عون، مجلس النشر العلمي، الكويت، ط1.

محمد علي أبو رتاب، تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام.

أحمد شوقي إبراهيم العمرجي، المعتزلة في بغداد وأثرهم في الحياة الفكرية والسياسية.